حمة (١) ابي رباح

لم يكتب احد من المتقدمين من علماء العرب وغيرهم في تاريخ هذه الحمة او موقعها او وصفها وصفاً تاماً مع مالها من المكانة في التاريخ والطبيعة كما انه ليس لباحثين المتأخرين من الغربيين والسوريين مقال في هذا الباب يرجع اليه او شرح يستند عليه.

ولقد كان يودي ان اقف على كلمة من هذا القبيل تكون لي دليلاً في سبيل ما اريد تسطيره وجمعه تؤيد ما اثبته في هذا الموضوع واروم تحريره الا اني لم اجد كتاباً يذكر ما اردت وبيّنه بما رمت فما وسعني الا ان اعود الى ما اعثر عليه من هذه الحمة الاخيار مجداً في تطييبه على القرب الحديث ومستدلاً على تاريخه بما عثرت عليه فيها من الابنية والآثار القديمة بقدر الامكان.

موقعها الجغرافي — ابو رباح جبل من كورة حمص من عمل ناحية القريتين يبعد عن الاولى اربعين ميلاً الى جهة الشرق وعن الثانية تسعة اميال الى الشمال الغربي يشرف على قرية يقال لها العنتر من املاك عبد المجيد آغا سويدان مدير ناحية حسيه (ابكي فيول) الحالي ورئيس اسرة سويدان العروفة ويحده من الشمال اراضي (الشومرية) وهي جبال قل فيها السهل ذات تربة جيدة وارض خصبة منبتة وفيها بعض القرى المستجدثة وكانت من املاك السلطان السابق ويسمونها الآن (الاملاك المدورة) ومن شماله انشأ الياس وهي كورة من كور حمص[2] فيها خرج من شحر البلخ يبلغ طوله تسعة اميال من الغرب الى الشرق ويحده من الشرق طريق القوافل بين الشام وتدمر ثم الحيانة وهي مزرعة لها ذات مياه وقد اوقع سيف الدولة فيها بقبائل البادية وذكرها المتنبي بقصيدة يمدح بها اشار اليه حيث قال:

ومرعا الحيانة يضحك فيها ... كلا الجيشين من تمع ازار[3]

ومن الجنوب العنتر والحماة الآتي ذكرها ومن الغرب الشومرية والقرقاس وهي قرية من الاملاك المدورة ذكرها ياقوت الحموي فقال انها اسم مياه قرب سلمية بالشام والاصح انها اقرب الى حمص من سلمية.

---

(١) الحمة هي العين الحارة التي يستشفى بها الاعلاء والمرضى لعلى القرب الجارة هذا المكان يسمونه الحمة والحل المدن كدمشق وحمص وحماة ويخصونها بالحمة حمام ابي رباح وابو رباح اسم مستحدث على ما اظن (٢) معجم البلدان (٣) معجم البلدان

مركزها الطبيعي — ان هذا الجبل بركان لا تأثر ولا منطفي ٠ الا انه لو كان ثائراً لاهلك القرى والبلدان المجاورة له وقضى على الارواح والاجساد مما يقذفه من الحجارة والحمم ولو كان منطفئاً لما صعد منه البخار الذي يراه الناظر من مسافة بعيدة متفرقاً في الجو ٠ ومعلوم ان الارض كانت جسماً يكاد يكون سيالاً يتلظى قبل وجود الانسان والحيوان والنبات على ظهرها ثم برد سطحها وبقي جوفها شديد الحرارة والسبب في ثوران البراكين هو هذه الحرارة والماء والمواد المعدنية الحارة في جوف الارض فاذا ما اختلط الماء بالمواد المعدنية الحارة تمدد ورفع ما فوقه ثم يزداد الضيق عليه من الحرارة وثقل الارض وعندما يشتد دفعه ينفجر و يقذف الحمم والصخور والبخار و يجعل الصعيد المستوي جبلاً راسياً مما يرى به تلك الاجسام ولكن اذا فقدت المواد المعدنية وظل الماء جارياً تسخنه حرارة باطن الارض الطبيعية البالغة الفي درجة او اكثر وكانت الارض بركانية من قبل لا يصعد من افواهها غير البخار كما يشاهد في ابي رباح هذا اذ يسمع الانسان الواقف عند فوهته صوتاً كهدير البحر و يرى البخار يتصاعد منها كبخار الماء المغلي في المرجل

فمن هذا يتبين لنا ان ابا رباح كان بركاناً ثائراً في العصور الخالية وداء ثورانه ردحاً من الزمن الى ان انتهى ما في جوفه من المواد المعدنية وبقي الماء والحرارة الطبيعية المسببان لصعود بخاره الحار

نظرة تاريخية — اتضح مما تقدم ان هذه الحمة بركان تفقدت مواده المعدنية الحارة منذ الوف من السنين وصارت الى ما هي عليه اليوم عبارة عن فوهة وسط جبل يتصاعد منها بخار مائي ليس الا ٠ ثم جاء الاقدمون و توافق هذه الفوهة حملاً يستشفون به من الاسقام والامراض ولكن من هؤلاء الاقدمين الذين شادوا هذا المعهد الكبير النافع ؟ ٠ ٠

سؤال نقف عنده اذ ليس لدينا من الادلة التاريخية الا الآثار الموجودة التي سنستنبط منها ما يكون موافقاً للاحكام التاريخية فنقول : سكن هذه البلاد كما روى التاريخ من الامم ذات الحضارة والمدنية والسلطة الكنعانيون والآراميون واليوبانيون السلوقيون والحدريون والرومانيون والمسلمون فالامم الاربع الاولى هم سكان البلاد الاصليون والاثنتان الباقيتان هم الفاتحون الذين تغلبوا بعد الفتح فاي امة من هذه

الامم قامت بتشييد هذا المحل يا ترى ؟ الملايين ؟ .. لا لأن الآثار الموجودة ليست من اياديهم بل الى القدم منهم قرون عديدة كما انها ليست من العالم ولو كان ذلك لعدوها في كنوزهم وكذلك الرومانيون لم يكونوا الا امة فتوح واستعمار لا امة عمران ولم يبرزوا الا في بناء المعاقل والحصون في الصحارى لحد صدمات المهاجمين ولما تقدم دولة مستعمراتها كما تفيد محاكمها الاصلية ومع كل ذلك نرى اثراً من تلك الآثار الخيالية في طراز هندستها والدهشة التي تسق الامنية الرومانية ذات العقود والعناصر المتقابل بين اجمة بيضاء عشرات من الخطوات وهو احدث الآثار الباقية المتداعية الاركان .

واذا امعنا النظر في هذه الآثار نقدر ان بأس الاكثم بن الاوامين من صفة فيها فريحا الموا سبيل ذلك المكان حيناً من الدهر حتى داهمتهم الحمى المنذرة عن حتوف الارض ابان ثورانها فاوهنت قوتهم وذوت منهم كما كبهم الزبد صفر الوجه هنالك آثار ناقصة تقتضا الحمى والانقاض الحائلة الى الثوران في باب الازمان .

وهنا لم يبق لنا سوى تلك الامنية الدفوقة الندمرية والانقاض من اية هذا الخام وما يجاوره من الانقاض الى احداهما او الى كليهما لان الامة السلوقية كانت ربة علم وفلسفة لا يفوتها استقدام مثل هذا الخام لتتمم الصحية وكذلك الامة الندمرية على ما عرفه وبعرفه الخاص والعام فان لها في مدينتها العظمى شاهداً عدلاً على ما بلغته من الاتقان في الصناعات والترقي في الفنون وما بلغته الباسلة التي كانت تجري من فوقها الانهار امة مثل هذه لا يفوتها حمل بركان قريب لها اجتنابها حماماً يزيل ما في الابدان من الاوجاع والاوصاب .

فلكلا الامتين كان لها في حاجة الحمامات افكار سامية وفي مضمار الرقي عقول نيرة ثم دالت دولتهما وهما يشدان :

ان آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا الى الآثار

اني اعجب اشد العجب لهذه الآثار تحول كل ما كان لهم من اليد الطولى في الفنون الجميلة والصناعات البديعة كما ان قيام هذا الحمام ليس عن تقدم في الهندسة فقط بل عن علم صحيح وعقل رجيح فانك اذا حققت النظر في بنائه الخربة وجدت انها كانت في عهدها الاول مستوفاة الشروط الطبية والفنية والمرجح انها تعود الى القرن العشرين من الانكليز بناء ولا يعدونه .

---

(١) المسافة بين قدس وابي رباح ستون ميلاً

وفوق كل هذا انني ارجع نسبة هذه الآثار الى التدمريين لمشابهة انقاضها لانقاض مدينة تدمر وقربها منها ولما يتواتر على السنة الاهلين في تلك الانحاء من ان هنالك سافية قديمة تنتهي الى المدينة المذكورة .

نبذة صحية — لو كنت طبيباً لفحصت هذا الحمام من وجهته الطبية والكيماوية فحصاً دقيقاً وعلمت ماهية بخاره ومقدار درجة حرارته ونتيجة تحليله ولكنني لا اطيق التطفل على موائد الطب فاقتصر على ما اعلمه من شفائه للمصابين بالامراض العصبية عامة وتيبس الاعضاء والتشنج خاصة .

وقاتنا ذكر ماهنالك من المناظر غير الفوهة التي بني عليها الحمام ومنها منفذان احدهما يتداوى به الصم بوضع آذانهم على فيه والثاني يؤمه العنيات من النساء لدفع الاسباب المانعة من حبلهن بتمعودهن الفرقصاء عليه ولا اخال الاطباء يقولون بخرافة هذه الطريقة لان البخار اذا ما دخل الاذن وبيت الولادة يطهر مافيهما من الاوساخ ان كان ثمت ذلك والله اعلم .

لمحة ادارية اقتصادية — ليس من ينكر ان مثل هذه المعاهد اذا عني باصلاحها تأتي بدخل عظيم ولكننا امة قدر لها ان تكون في الاعصر الماضية خاملة كسلى لا تهتدي الى طرق غناها ولا تدرك مقر ثروتها التي هي تحت تصرفها وفي حوزتها فترى المال الذي في جبالها متروكا والمزوج بتربة سهلها منسياً ومن جملة المهملات هذا المكان الذي نحن بصدده وهو لم يزل خراباً يبابا يلجأ اليه لصوص الاعراب وحرامتهم فلو لحظ بطرف الاهتمام قليلاً وارسل اليه طبيب كيماوي يحلل بخاره ويشرح فوائده الصحية بتقرير شرعاً وافياً ومهندس يخطط لاعتباره مصوراً كافياً ثم تنشأ فيه اماكن منظمة تسر القاصدين من المرضى وغيرهم بعد بناء محفرة الجند تمنع المعتدين من اهل البادية وتلزمه الحكومة الى شركة او متمول لفاء مبلغ من المال لكانت تستفيد منه وتفيد فتنشر الامن في تلك الربوع وتصلها فاعلة عن قريب وعسى اهل العلم لا يضنون علينا بما يكشف الغامض من هذه الحمامات البخارية

فارس فياض